تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

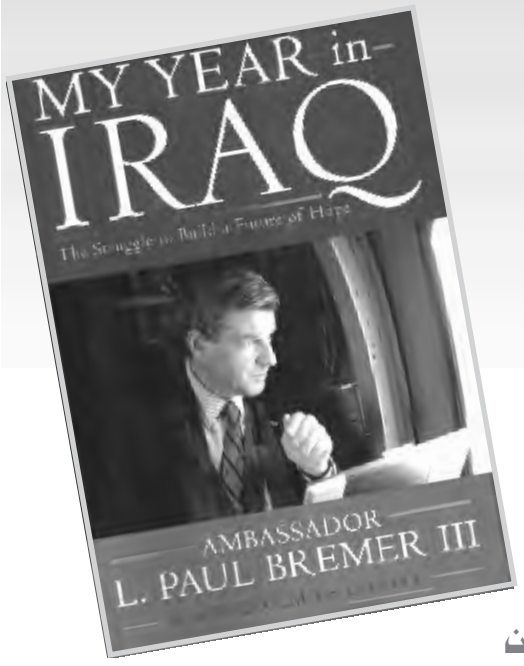

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة / د. عابد اسماعيل

(الحلقة العاشرة)

في صباح يوم الجمعة، ١٦ أيار، ٢٠٠٣، حيث كان كلّ من رايان، وهيو، وكلاي، و "العَقلين"، مسمّرين جميعاً إلى مكتبي، وقّعتُ مرسومَ سلطة التحالف المؤقتة رقم واحد. التقطَ سكوت صورةً. بدت الصورةُ مثل عربة قطار الأنفاق ساعة الزحام. "الصحافة العراقية، والتلفزيون العراقي، سوف يبثّان هذه القصة بلا انقطاع." قلتُ. ابتسم هيوم. "الأخبار انتشرت لتوها في كل سوق قرية وحانوت شاي، من البصرة إلى أربيل.

"جيد،" قلتُ. "هذا سيجعل عملي في ظهيرة هذا اليوم أسهل قليلاً."

قبل أن أقابل الوفد العراقي في تلك الظهيرة، ناقشتُ مرسوم اجتثاث البعث مع الصحافة. "يوجّهُ العملية مبادئ ثلاثة،" أعلنتُ. "ستكون عادلة، شفّافة، ومستمرّة. سوف نتأكّد أنّ أولئك الذين انضمّوا إلى الحزب، تحت الإكراه، ما زال بإمكانهم تسخير مواهبهم لخدمة الشعب العراقي. إننا جاهزون لأن نقبل بأنّ هذه السياسة سيتمخّض عنها بعض الإعاقة المؤقتة في إدارة الحكومة."

هذا البيان كان موجّهاً لتهدئة بعض التذمّر لدى موظّفي (مكتب إعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية) ولدى بعض التكنوقراط البعثيين، المبعدين.

وكما اتضح لاحقاً، غادر معظم أعضاء حزب البعث الكبار وزاراتهم بعد سقوط بغداد. بل إنّ العديد منهم فرّ من البلاد. مع ذلك، يبقى تطبيق المرسوم صعباً للغاية.

كرّرتُ بأنّ التحالف يمكن أن يرتكب أخطاءً في اختيار مَن من العراقيين يجب أن يذهب ومَن منهم يجب أن يبقى على رأس عمله. وأضفتُ أنّ العراقيين يمكنهم أن يقوموا بالتمييز الدقيق، والضروري، من أجل قيام سياسة عادلة. "وفي أقرب وقت ممكن سوف نحيل عملية اجتثاث البعث إلى حكومة عراقية انتقالية."

بعد عشرين دقيقة من معلومات مع الصحافة، عن الخلفية التاريخية، عقدتُ اجتماعاً مع كبار مستشاري الوزارات في مكتب إعادة الإعمار، والذي وصفتهُ لفرانسي في رسالة ليلية متأخّرة، عبر الإيميل:

"ثمة الكثير من التذمّر والتأوه، وكثيرون يقولون إن الأمر سيكون صعباً. ذكّرتهم بأنّ توجيه الرئيس واضح: سيتمّ المضي في عملية اجتثاث البعث، حتى وإن كان ذلك على حساب الفعالية الإدارية. يبدو أنّ الجميع مرّوا بأوقات غير جيدة."

أرسلتُ المستشارين، كلاً إلى وزارته المخصّصة، ليطّلعوا العراقيين على التغييرات الملزمة. أحد هؤلاء قال مباشرةً لصحيفة نيويورك تايمز إنّ مرسومي "فاشي".

وبما أن غاية هذا الإجراء هي تقويض حزب فاشي ملتزم، وجدتُ التعليق غبياً للغاية.

بالنسبة للمناصرين، كانت ردةُ فعل الشعب العراقي تجاه اجتثاث البعث مُرحِّبةً، في أغلبيتها. وفي غضون الأربعة عشر شهراً التالية، سمعتُ مئات المرات بأنّ المرسوم رقم واحد يمكن أن يكون أهمّ خطوة اتخذتُها كحاكم مدني. لقد أظهر بوضوح أننا لم نكن فقط نسعى إلى قلب طغيان صدام حسين الغاشم، بل التأسيس لنظام سياسي جديد.

في يوم الجمعة، بعد الظهر، كنا ننتظر مقابلةَ سبعة ممثلين عراقيين في غرفة الاجتماعات في القصر، حيث أعقدُ اجتماعات فريق العمل. هذه المجموعة، التي كنا نشير إليها بمجموعة (G7)، ضمّت:

•أحمد الجلبي، من المؤتمر الوطني العراقي، وهو شيعي. كان عبقرياً في طفولته، وأكمل شهادة الدكتوراه في الرياضيات من جامعة شيكاغو في سنّ مبكّرة. ينتمي إلى واحدة من أكثر عائلات العراق غنىً. هرب من البلاد وكوّن ثروة من خلال تعاملاته التجارية، التي يخيم على بعضها غيمةٌ من الشك. كان الجلبي يتمتع بعلاقات شخصية وطيدة مع الكونغرس في (كابيتول هيل) ومع بعض الموظفين المدنيين في البنتاغون، ولكن ليس مع وزارة الخارجية أو وكالة المخابرات المركزية (CIA).

•إياد علاوي، زعيم الوفاق الوطني العراقي، وهو أيضاً شيعي علماني. كان الخصم الرئيسي للجلبي. علاوي، الطبيب، نجا من محاولة اغتيال وحشية في عام ١٩٧٨، حيث كان يعيش في المنفى في بريطانيا، عندما قامت مجموعة من عملاء صدام بضربه بالفأس وهو في فراشه. في السنوات اللاحقة، عمل علاوي عن كثب مع منظمات مخابرات غربية وعربية.

•الكرديان هما مسعود برزاني، رئيس الحزب الديموقراطي الكردي، وجلال طالباني، من حزب الاتحاد الوطني الكردستاني. كلتا المجموعتين قدّمتا مليشيات فعّالة، حاربت إلى جانب قوات التحالف الخاصّة في شمال العراق خلال الغزو. ومليشيات البشمركة، التي تتألف من مقاتلين أحرار ينتمون إلى بعض العشائر، كانت قد اقتتلت فيما بينها، خلال الصراعات الداخلية الكردية في فترة التسعينيات.

•وضمّ مجلس القيادة العراقي أيضاً نصير الجادرجي، وهو محام سنّي محترم، في السبعين من عمره، كان يقود الحزب الديموقراطي الوطني، العلماني، الصغير. وتمتد جذور الحزب إلى المحاولة المجهَضة لإرساء ديموقراطية في العراق، ولكن تمّ سحقه على يد عصابة البعث في أواخر الستينيات.

•ابراهيم الجعفري، مثل علاوي، يعمل طبيباً، وكان الممثل الرئيسي لحزب الدعوة الإسلامي الشيعي، والذي خاض انتفاضة مفتوحة ضد نظام البعث بدءاً من أواخر السبعينيات، قبل أن يُجبر كل من الحزب والجعفري على لعيش في المنفى.

•الحزب الإسلامي الشيعي الآخر، هو المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق (SCIRI)وكان يمثّله الدكتور عادل عبد المهدي وحامد البياتي، لأنّ أكبر قادته في بغداد، عبد العزيز الحكيم، كان مريضاً، كما زُعِم. انتابتني الريبة بأن يكون مرض الحكيم "ديبلوماسياً" فحسب لأنه كان معروفاً بعدم ثقته بدوافع التحالف.

كنا نأمل أن نستخدم مجلس القيادة العراقي في خلق لجنة قيادية يمكن أن تضمّ مجموعات أكبر، يمكنها أن تختار حكومة انتقالية. غير أننا كنا نعرف أن للمنفيين العراقيين طموحات أكثر جرأةً.

حين بدأ اجتماعنا بعد الخامسة بقليل، من يوم الجمعة، كانت غرفة الاجتماعات في القصر أشدّ حرارةً مما كانت عليه في ليلة الاثنين. كان هناك الكثير من قناني الماء الفاتر فوق الطاولة الضخمة. كنا جميعاً نشرب الماء من دون توقّف، في هذه الحرارة. وكما هي العادة، كانت أضواء الثريا السقفية تعلو وتنخفض، مع حركة المولّد الكهربائي.

كان يمثّلُ التحالفَ الجنرال ديفيد مكيرنان، القائد العسكري في بغداد، والمبعوث البريطاني الخاص، السفير جون سويرس، وهو ديبلوماسي محنك يجيد العربية، ومن ثمّ جي غارنر، ورايان كروكر، وهيوم هوران، وأنا. وكان جون أبي زيد قد طار من الدوحة، بناءً على دعوتي، للتأكيد على التنسيق العسكري والسياسي داخل التحالف. جلس العراقيون على طرف واحد من الطاولة، المواجهة لمجموعة سلطة التحالف المؤقتة، وجلس نوابهم خلفهم.

بدأتُ ببعض الملاحظات الافتتاحية، مقدّماً أعضاء وفدنا، ومراعياً أشكال الكياسة العربية، حيث شكرتُ شخصياً كلّ "ضيف" لتلبيته دعوتنا. ولم أشأ أن أبالغ بالرسميات، لكنني أردت أن يعرف العراقيون بأن سلطة التحالف المؤقتة لديها قادة مثل هيوم ورايان ممن يعرفون ثقافتهم أيضاً.

"أريد أن أؤكد الأهمية التي يوليها التحالف للشراكة بين سلطة التحالف المؤقتة و مجلسكم بينما نسير باتجاه حكومة تمثيلية،" قلتُ، متحدثاً ببطء بحيث يستطيع أولئك الذين يحتاجون للترجمة متابعة كل كلمة.

ولكي أؤكد على هذه النقطة، أضفتُ، "لكنني أتوقع أنّ يكون التقدم على هذا المسار تدرّجياً." من الواضح، كنتُ أشير إلى أنّه لن يكون هناك نقل مباشر للسلطة التي كان يرغب بها البعض. "لكننا مستعدون للتنازل عن مسؤوليات متزايدة إلى قادة عراقيين مسؤولين."

الدكتور جلال طالباني، الزعيم الكردي، صاحب الشعر الأبيض، كان أول من يرد. والسيد طالباني رجل قصير، ممتلئ الجسم قليلاً، ومرح، يرتدي نظارتين مدوّرتين كعيني البومة، ويربي شارباً فضياً أنيقاً. "يجب أن أقول، سعادة السفير بريمر،" بدأ تعليقه بإنكليزية مهذّبة، "أنني شخصياً سعيد بحضور اجتماع مع التحالف في إحد قصور صدام السابقة." وردّد أحمد الجلبي ملاحظات طالباني. الجلبي رجل متوسط القامة، بمظهر ناعم، ودمث. وعلى نقيض معظم العراقيين، لم يكن يربي شارباً. كان يتحدث الإنكليزية بطلاقة. توجّه الجلبي أولاً إلى غارنر،"حضرة الجنرال،" قال، "نود أن نشكركم على العمل الجاد الذي قمتم به من أجل شعب العراق." ثمّ توجّه بحديثه لي، "ونرحب بالسفير بريمر وأعوانه."مسعود البرزاني هو زعيم عشيرة كردية هامّة، في أقصى الشمال الشرقي من البلاد، ومقاتل صلب. قصير ومكتنز، ومفرق شعره المتراجع جعل رأسَه يشبه القذيفة. كانت عيناه الصغيرتان السوداوان متيقّظتين دوماً. لم يكن برزاني يشعر بالراحة في لقاءات من هذا النوع، مثل زميله طالباني، لكنّ الناس كانوا يولونه انتباهاً.

"السفير بريمر، الجنرال غارنر،" قال برزاني بالعربية، "إنني أتحدث باسم كل العراقيين حين أشكر التحالف من أجل تحرير العراق."

"أريد أن أتحدث عن الحالة الأمنية،" قلتُ لهم فيما بعد. "وسوف أقدّر جداً سماع آرائكم. الأمن هو حجر الزاوية في كل جهودنا لبناء عراق جديد، بما في ذلك خلق حكومة عراقية تمثيلية."

عدّل إياد علاوي كتفيه الممتلئين، متحدّثاً بثقة بإنكليزية طليقة. مثل الجلبي، لم يكن يربي شارباً، ولا يرتدي نظّارتين. "هناك فراغ أمني. أعمال فوضى، وجرائم شوارع لم نشهدها من قبل." واستمر يصف الفوضى التي شهدناها جميعاً. "يحتاج الناس إلى حماية أكبر،" ختم علاوي.

الجنرال أبي زيد أجاب عن ذاك التعليق. "أودّ أن أنظّم اجتماعاً في أول الأسبوع القادم مع كبار قادتي ومع أعضاء هذا المجلس، لمناقشة حلول عملية للمشكلة الأمنية."

وبدا أنّ هذا الكلام كان له وقع إيجابي بين المجموعة. وانتقلنا لمناقشة مرسوم اجتثاث البعث الذي كنتُ وقّعتُهُ ذاك الصباح. وأصدر كل واحد من السبعة الحاضرين بياناً مقتضباً يرحب صادقاً بهذا الأمر. بعدئذ، عبّر الدكتور ابراهيم الجعفري، الذي عانى أتباعه في حزب الدعوة الشيعي كثيراً، في ظلّ نظام صدام، عن مخاوف ردّدها الجلبي والطالباني. "سعادة السفير، جميعنا يساورنا القلق بشأن إشارات توحي بأنّ حزب البعث يعيد تنظيم صفوفه." تحدث الجعفري بإنكليزية ركيكة. كان يزيد من إشارات يديه، ويتحدث بسرعة أكبر، متنقلاً غالباً بين اللغتين، وبين المواضيع، مما أدخلَ بعض اليأس في نفوس مترجمينا. "يجب أن لا يسمح التحالف لهذا أن يحدث. نحن جميعاً نأمل أن تتصرفوا بحزم للقضاء على هذا الانبعاث وهو في مهده."

"إني أحثّ التحالف على الذهاب أبعد مما يقوله المرسوم الذي صدر اليوم، وتنفيذ عملية اجتثاث للبعث أكثر حزماً،" قال الجلبي.

إجراءات، أشدّ قسوة، سوف تفيد الشيعة. ولكن، ومما يبعث على الدهشة، أنّ الجلبي قطع تعليقه. "على أيّ حال،" قال، مشيراً بسبابة يده اليمنى، في الإشارة العربية للتحذير، "يجب أن ندرك أيضاً أن العديد من العراقيين أُجبروا على الالتحاق بالحزب." عقبتُ بالقول إنّ سياستنا مبنية على أخذ تلك الحقيقة بعين الاعتبار.

كان النصفُ ساعة الأوّل من اجتماعنا حميماً، وإن ظلّ رسمياً. وبرد الجو حين انتقلنا إلى العملية السياسية.

"أريد أن أؤكد ثانيةً أنّ الطريق إلى حكومة تمثيلية ستكون تدريجية"، قلتُ لهم من جديد.

هنا بدأ أعضاء المجلس يتحدثون بطريقة أكثر حسماً، يتقدّمهم طالباني. "في الوقت الذي نشكر فيه التحالف بكل إخلاص للجهود التي قام بها، يتوجب علينا أن نحذر من تبديد النصر العسكري من خلال الإحجام عن بذل جهود سريعة، منسّقة، لتشكيل حكومة جديدة."

حامد البياتي، الذي يمثّل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، تحدث للمرة الأولى. "سعادة السفير، يتوجب عليك أن تعجّل بالعملية السياسية. إن الشارع ينتظر الحرية التي وعدتم بها." سوف أتعلّم باطّراد أنّ السياسيين العراقيين يحبون أن يستحضروا المصطلح الغامض "الشارع العربي"، في كل نقاش تقريباً.

"مع كل احترام، سفير بريمر،" قال الجلبي، "يجب أن أذكّر سلطة التحالف المؤقتة بالوعود التي قطعوها في هذا الشهر الماضي، حول تأسيس حكومة انتقالية في غضون بضعة أسابيع." وابتسم برقّة، ناظراً إلى جي غارنر.

"إنّ نية التحالف هي تأسيس حكومة انتقالية حالما يكون ذلك ممكناً،" قلتُ، محافظاً على نبرة معتدلة. ونظرتُ مباشرةً إلى الجلبي. "لكنني أرفض الفكرة بأنّ التحالف يؤخّر ذلك. مثلما قلت للتو، ستكون العملية تدرجية، ويجب أن تكون غايتها الإتيان بمجموعة ممثلة، حقاً. ثمة زعيم سني واحد بينكم فقط." نظر الجميع باتجاه نصير الجادرجي. "لا يوجد بينكم تركمان، أو مسيحيون، أو نساء."

كنت أمارس السلطة التي منحني إياها الرئيس جورج بوش، "خافضاً المطرقة". هؤلاء قادة مثقفون. لم أكن بحاجة للإفصاح بأنّ الجميع، باستثناء الجادرجي، هم منفيون عادوا مؤخراً إلى العراق. "بالتأكيد حكومة ممثلة يجب أن تضم عراقيين عاشوا هنا وعانوا تحت حكم صدام على مدى عقود. هذا ليس بأي حال انتقاصاً من الجهود الاستثنائية التي بذلتها الأطراف الممثلة هنا لتحرير بلادكم." يمكن أن تكون التهنئة الأخيرة قد هدأت بعض المشاعر الحساسة. وربما، لم تنجح في ذلك قطّ. لم أكن أدخل منافسة الرجل الأكثر شعبيةً، لا مع فريق عملي، ولا مع المنفيين.

كان الوقتُ قد حان لأجعلهم يفكّرون ويعملون. كنا نحتاج، على أي حال، جهودَهم في بناء وطنهم. "إن التحالف يحترم دور كل واحد فيكم، وقد لعبت منظماتكم دور المعارض لصدام منذ سنوات عديدة. ونحن نرى دوراً لكلّ واحد بينكم في الحكومة الانتقالية التي ننوي إقامتها قريباً. ولكن، من أجل أن تلعبوا ذلك الدور، عليكم أن تعدّلوا في بنية المجموعة بحيث تكون أكثر تمثيلاً لكلّ تيارات المجتمع العراقي. أودّ أن أقابلكم ثانيةً، بعد أسبوعين من الآن، وفي غضون ذلك، آمل أن توسّعوا حلقتكم بحيث نصل إلى تلك المجموعة الممثلة."

في ختام الاجتماع، أعلنتُ أنّ الصحافة قد دُعيت لتحية مجلس القيادة العراقي. كان بمقدورنا أن نسمع جلبة الصحفيين وطاقم كاميرات التصوير، تهدر في الممر، خارج غرفة الاجتماع. "سوف أُبدي بعض الملاحظات أولاً، وأقترح أن ترشحوا ممثلاً عنكم للحديث بعدي."

أثار اقتراحي جلبةً مسموعةً. بالرغم من المظهر العلني للتعاون، كانت هذه المجموعة المتنافرة سياسياً وروحياً، وعرقياً، غير معتادة على التعاون. واستغرقهم الوقتُ أكثر من عشرين دقيقة لاختيار الزعيم الكردي، مسعود برزاني، كناطق باسمهم. كان هذا بمثابة الإنذار للصعوبات التي ستواجهها هذه المجموعة، حتى في اتخاذ قرارات بسيطة.

يجب ان ندرك ان العديد من العراقيين اجبروا على الالتحاق بالبعث .. ان سياستنا مبنية على اخذ تلك الحقيقة بعين الاعتبار

يتبع